الفصل التاسع

لعبة التوازنات وزواج المصلحة

إنه صيف ١٩٥٧ ... إذ سنحت لرويرت (بوب) دريهر٨٣ الفرصة للعودة إلى ميونيخ ... "دريهر" المتهم بقلب الأوضاع في أمكوهليب رأسا على عقب بغية إعادة تنظيمها، والمتهم أيضا بالاستخدام المسيء للاجئين، وبخاصة "المسلمون".

لقد كان "دريهر" تواقا إلى فرصة تمكنه من تنفيذ سياسة "الهجوم الاستباقي"، والفوز في بعض معارك دعائية ضد السوفييت. إلا أنه كان مدفوعا بمحركات أخرى أيضا. فخلف رجل "وكالة الاستخبارات المركزية" المثابر الجاد - يقبع ذلك الصارم غير القابل للتدجين ... ذلك الكاره لأمريكا "خمسينيات القرن العشرين". أجل ... إن ضرب الشيوعيين لأمر مرض، بيد أن "دريهر" قد رأى في أوروبا مكانا لإشباع رغبات أخر.

أما طريق عودته إلى ميونيخ، فقد عكس المحركات التي كانت تدفعه. فعوضا عن الذهاب من الولايات المتحدة الأمريكية إلى ميونيخ مباشرة، هبط "دريهر" في العاصمة الفرنسية باريس ليركب قطارا ثم قاربا إلى ile du Levant أو "جزيرة المشرق" - وهو شاطئ عراة في الريفييرا الفرنسية. وهناك ... التقى "دريهر" أصدقاء قدامى، وتعرف إلى آخرين جدد. أما واسطة العقد، فكانت "تلك الصور

التى قمت بالتقاطها بواسطة كاميرتى (الكوداك) ... تلك الصور التى ضمت بعضا من صيد ثمين" ... على حد ما كتبه فى خطاب بتاريخ السادس من آب/ أغسطس ١٩٥٧ أرسله إلى أخته "هيلين"، وزوجها "تشارلز أوركفيتس".

كان "دريهر" ينتمى إلى ذلك النمط من الرجال الجاذب للنساء، إذ كانت له الملامح التقليدية لوسامة نجوم هوليوود "الخمسينيات" ... فقامته السامقة (١٨٨ سم)، وجسده الرشيق (٨٢ كيلو غرام)، فضلا عن شعره الأسود المنسدل، ووجه الأملس الوسيم، وتمتعه بروح الدعابة ... جعله هذا كله أقرب شبها بأولئك "النجوم". أما ابتسامته الساحرة التى لم تفارقه قط فى أية صورة التقطت له، وأسنانه البيضاء المنتظمة ... فكانت تمنحه بعض الشبه من الممثل "كارى غرانت".

"إن امرأة واحدة لا تكفينى" ... قالها "دريهر" ضاحكا، وكأنما يحذر بها "كارين

وست" – تلك اللاجئة البلطيقية التى كانت تعمل بمستجمع أفكار خاص بأمكومليب فى الاتحاد السوفييتى. بيد أن "كارين" لم يكن ليقلقها تعدد علاقات "دريهر" النسائية ... فهى صديقة "أفلاطونية" ائتمنها "دريهر" على أسراره ... امرأة تظاهرت بكونها زوجته ليتمكن الثنائى من المرور إلى داخل شواطئ العراة الألمانية، تلك التى تستقى "فلسفتها العارية" من حركة ألمانية تعرف بـ "ثقافة الجسد الحر" ... تلك الثقافة التى تعتمد نهجا "طبيعيا" فيما يخص الرياضة والحياة المجتمعية، ثقافة تؤمن بما تتيحه "التجربة الطبيعية" من متعة ومرح، وكذا ما يتيحه "التعرى" من نتائج مماثلة ... ذلك التعرى الذى لا يرتبط – فى جوهره – بإيحاءات جنسية بعينها. هذا، ولم تكن "شواطئ العراة" تلك لتشبع رغبات "دريهر" أو من على شاكلته من عزاب ذوى علاقات نسائية عابرة ... إذ كان على مرتاديها أن يكونوا أزواجا جادين، وألا يكونوا سكارى. أما "دريهر"، فلم يكن ذلك "السياق الروحانى" المستمد من حركة "العودة إلى الطبيعة" ليعنيه من قريب أو بعيد.

وبين الحين والآخر، كان نمط حياة "دريهر" يمزقه كل ممزق. ففى خطاباته المرسلة إلى وطنه "الأمريكى"، كان "دريهر" يبهج أفراد أسرته – هناك – بروايات حيكت بدقة وعناية عن جميع "الجميلات" اللواتى صادفهن ... فكانت النبرة نبرة "دريهر"، وهو مقيم فى أوروبا ... ذلك الأعزب السرمدى الغارق فى ملذاته. إلا أنه – فى مناسبة بعينها – يصحو من غفلته ليعض بنان الندم مخبرا أخته وزوجها، فى خطاب أرسله إليهما فى التاسع عشر من أيار/ مايو ١٩٥٣، بأنه " فى أعماق نفسى، أدرك أننى أفتقر بشدة إلى التناغم والتوافق والاتساق ... إننى عازم على العودة إلى ديارى حيث أرض الرب عسانى أجد مخرجاً".

أما خلال فترة إقامته الثانية فى أوروبا، فكان "دريهر" – وفقاً لذكريات مستخدميه وزملائه – يتجاذبه تياران ... تيار يدفعه نحو استئناف مسيرة شاقة لم

يؤمن إلا القليل بأنها ذات جدوى، وتيار يجذبه ليكون أسير عذابات نمط حياته البوهيمى ... لقد بدت "مشكلته" الرئيسية وكأنما قد انحصرت فى اقتناء سيارة "مكشوفة" مناسبة (فالمرسيدس باهظة الثمن، فيما الفولكس فاجن بسيطة للغاية)، أو فى اقتناء مُشغِّل للموسيقى (فالأجهزة الألمانية تبدو جيدة، بيد أن كفاءتها منخفضة) ... أما النساء، فكل ما يبغين هو أن يتزوجن.

إن كثرة من العاملين بأمكومليب قد أضحوا خبراء فيما يخص ثقافات اللاجئين ولغاتهم، وهو ما أكسب أولئك العاملين تقديراً وإجلالاً ... إلا "دريهر" – حين سئل – عند قيامه بملء استمارة "وكالة الاستخبارات المركزية" – ليكتب عن هواياته وفق تسلسلها... كتب "دريهر" أنه يجيد الرقص، والتشخيص الدرامى، وتنس الطاولة (البينغ بونغ)، وأنه لذو مستوى متوسط فيما يخص كرة المضرب (التنس)، والإبحار بالمراكب، والفوتوغرافيا ... أما القراءة، فيكاد لا يلقى لها بالا. كذا، فقد كانت "اللغات" ضمن نقاط ضعفه، إذ كان يعرف بعض الروسية والألمانية – كتابة ... إلا أنه كان يتحدث ألمانية ركيكة رغما عن مضى سنوات عاشها فى ألمانيا. أما معينه الثرى الذى لا ينضب، وكنزه الثمين الذى لا يفنى ... فالصور التى التقطتها عدسة كاميرته "الكوداك" – تلك الصور التى كان يحب أن يريها نفرا من اللاجئين المفتونين ... ويتذكر البعض إصابتهم بالنفور من تلك الصور. أما "دريهر"، فلم يلق بالا لتلك الصور ... إذ ظل بعضها مزدانا بإطارات حوته أعلى مكتب "بوب دريهر". ويا لها من مفارقة ... فذلك الرجل الذى كان تجسيدا لمبدأ اللذة والمتعة – وهو المبدأ الذى نشأ فى خمسينيات القرن العشرين – هو من أخذ القرار بإعادة هيكلة "الأمكومليب" وتنظيمه. أما نهجه، فكان الشراكة مع سعيد رمضان وجماعة "الإخوان المسلمين".

خلال الولاية الثانية من حكم الرئيس "أيزنهاور"، قررت الإدارة الأمريكية أن

تكون أكثر جدية فى تناولها لقضية "الإسلام" ... إذ تم الإعلان عن "مبدأ أيزنهاور"[٨٤] عام ١٩٥٧، والذى تعهدت الولايات المتحدة الأمريكية بمقتضاه بالتدخل العسكرى لصد العدوان – الفعلى والملوح به – فى ردة فعل لما ارتآه صانعو السياسة الأمريكية من نفوذ سوفييتى متنام فى إقليم الشرق الأوسط، وبخاصة فى مصر. أما الرئيس "أيزنهاور"، فقد بدا – شخصياً – مهموماً بكيفية مخاطبة العالم الإسلامى. لذا، فقد عمد إلى كتابة خطاب فى الحادى والثلاثين من تموز/ يوليو ١٩٥٨ وجهه إلى المؤتمن على أسراره – القس البروتستانتى "إدوارد إلسون" قائلا إن الإسلام وإقليم الشرق الأوسط كان كلاهما يشغلان ذهنه ويدوران بخلده على الدوام. واستطرد "أيزنهاور"، فى خطابه، ليخبر "إلسون" ويؤكد له: "إننى لا أتوانى ألبتة فى أى اتصال أجريه مع هذا القائد العربى أو ذاك – شفاهة أو كتابة – فى التشديد على أهمية العامل الروحانى فى علاقاتنا. إننى لأذهب دائما إلى ضرورة أن يخلق إيماننا المشترك بالله هدفا يجمعنا – ألا وهو دحر الشيوعية الملحدة".

أما فى اجتماعات البيت الأبيض، فكان "أيزنهاور" أكثر جرأة. ففى حديثه إلى مهندس العمليات السرية لوكالة الاستخبارات المركزية – "فرانك غاردنر ويزنر"[٨٥]، وكذا إلى هيئة الأركان المشتركة، ذهب "أيزنهاور" إلى ضرورة أن يسبر "العرب" أغوار دينهم وأعماق عقيدتهم بحثا عن إلهام يجعلهم يحاربون تلك الشيوعية البغيضة.

ووفقاً لمذكرة توضيحية أعدها العميد/ أندرو غودباستر، سكرتير "أيزنهاور" للأركان، بتاريخ السابع من أيلول/ سبتمبر ١٩٥٧ اشتملت على حديث "أيزنهاور" إلى "ويزنر" ... "فإن أيزنهاور قال إنه يجب علينا القيام بكل ما فى وسعنا للتشديد على مفهوم الحرب المقدسة". أما "جون فوستر دالاس" – وزير الخارجية الأمريكى آنذاك – فقد عقب بأنه "إذا كان للعرب أن يخوضوا حربا مقدسة، فسيريدونها

حرباً ضد إسرائيل". إلا أن "أيزنهاور" قد ذكر أن العاهل السعودى، آنذاك، الملك سعود بن عبد العزيز قد دعا العرب كافة، بعد زيارة له إلى الولايات المتحدة، إلى مناهضة المد الشيوعى.

هذا، وقد عمل "مجلس تنسيق العمليات" – وهو الكيان القائم على تنفيذ العمليات المغطاة لوكالة الاستخبارات المركزية وغيرها من الوكالات – إلى تبنى "الإسلام" سلاحا. وكان "المجلس" قد فرغ، بالفعل، من إعداد دراسة مفصلة عن "البوذية"، وكيف أنه يمكن استخدام تلك العقيدة فى المضى بالمصالح الأمريكية قدما. وفى عام ١٩٥٧، أنشأ "المجلس" فريق عمل أرسى خصيصا للتباحث حول "الإسلام" ... فريق ضم مسئولين من الوكالة الأمريكية للمعلومات، ووزارة الخارجية الأمريكية، ووكالة الاستخبارات المركزية. ووفقا لمذكرة تناولت الاجتماع الأول لفريق العمل، كان الهدف تقييم أداء المنظمات الأمريكية – الخاصة والعامة – بشأن قضية "الإسلام" وتوظيفه، والوصول إلى "خطة تنفيذية مبدئية" ذات مكونين رئيسيين، كانت لهما أصداء فى عمليات وكالة الاستخبارات المركزية فى ميونيخ. أما المكون الأول ... فذهب إلى ضرورة تجنب الولايات المتحدة للمسلمين التقليديين، والتعامل – كبديل عن ذلك – مع "جماعات الإصلاح"، من أمثال جماعة "الإخوان المسلمين". وأما المكون الثانى ... فقد تنافت الأجندة السياسية الراديكالية لجماعة "الإخوان المسلمين" الذاهبة إلى العودة إلى الإسلام النقى وفق منابعه الأصيلة – آنذاك، كما تنافت – مع استخدام أعضائها لرموز حداثية عصرية كاللباس الغربى والرطانة الأجنبية. لذا، "فإن رئيس فريق العمل وعضو وكالة الاستخبارات المركزية بالفريق قد استشعرا أنه نظرا لانقسام العالم الإسلامى ما بين جماعات رجعية وأخرى تقدمية إصلاحية ... فقد يكون الأجدى هو التشديد على برامج تعمل على تقوية شوكة تلك الجماعات التقدمية".

وفى الثالث من أيار/ مايو ١٩٥٧، وافق "مجلس تنسيق العمليات" على البيان التفصيلى وخطة العمل ... حيث كانت العبارات بسيطة جلية: الإسلام حليف فى معركتنا ضد الشيوعية، أما الشيوعيون فيستغلون الإسلام بتوظيفه ... إلا أن الإسلام لذو تأثير فى موازين القوى. هذا، وقد اشتمل البيان على العديد من التوصيات بشأن تمتين الأواصر مع المنظمات الإسلامية، وبخاصة تلك المتسمة بمنحى واضح تجاه مناهضة الشيوعية. وكما هى الحال دائما، توجب أن تكون العمليات مغطاة ... إذ خلص البيان إلى أن "البرامج المغطاة، والتى يصعب عزوها إلى جهة بعينها، تكون فاعليتها أكثر رجحانا بما يحول دون اتهامنا بتوظيف الدين لتحقيق مآرب سياسية". كذا، فقد ذهب البيان إلى "ضرورة الابتعاد عن التوظيف العلنى للمنظمات الإسلامية لترسيخ الدعايات المتشددة فى الأذهان".

تلك كانت الاستراتيجية التى انتهجها كل من "دريهر" والأمكومليب ... بحذافيرها. ونظرا إلى كون بعض ملفات "وكالة الاستخبارات المركزية" لم يفرج عنها بعد، فيصعب القول – إذاً – وعلى وجه التحديد، أن أمكومليب كانت تمول "سعيد رمضان" وجماعة "الإخوان المسلمين" تمويلا مباشرا. بيد أنه، وفى ظل غياب قائمة بمدفوعات "وكالة الاستخبارات المركزية"، فإن أية دلالة هنا أو أخرى هناك لتشير إلى حقيقة قيام "دريهر" والأمكومليب باستخدام رافعة مالية ودفعة سياسية للدفع برجل "الإخوان المسلمين" – سعيد رمضان – إلى الأمام.

كان "بوب دريهر" – قبل مغادرته الولايات المتحدة الأمريكية قاصدا ميونيخ – يعمل مساعداً خاصاً لهولاند هيل سارغنت، رئيس أمكومليب[٨٦]... حيث كانت مهمته تنظيم الدعايات المستترة لإقناع الأمريكيين بوجود تنظيم قوى مستقل للاجئين السوفييت، وهو الأمر المنافى للحقيقة إذ لم يكن لتنظيم كهذا أى وجود ألبتة. كذا، فقد كان "دريهر" يحضر اجتماعات مجلس إدارة أمكومليب.

هذا، وقد أهله وضع كهذا تمام التأهيل لمنصبه الجديد كمنسق شئون اللاجئين براديو الحرية ... حيث أعفى "إسحاق باتش" من منصبه ... "باتش" الذى كان قد أرسل قبل سنوات قلائل مضت لتوحيد الجماعات الإثنية السوفييتية المتصارعة، وبناء جبهة ذات مصداقية لإخفاء تمويل "وكالة الاستخبارات الأمريكية" لتلك العملية وإدارتها لها. ولقد كان ينظر إلى "باتش" - ذلك الدبلوماسي - كرجل دمث حلو المعشر حريص على الوصول إلى إجماع الآراء بشأن القضايا المختلفة ... رجل أقرب ما يكون إلى رب أسرة محبوب، إلا أنه يفتقر إلى أفكار "دريهر" الجريئة ... "دريهر" - الذى كان تواقا لإنعاش شئون اللاجئين بإعادة إحيائها. فعوضا عن استخدام اللاجئين كمواهب إذاعية على أثير راديو الحرية فحسب، أراد "دريهر" أن يدفع بالمعايير الدعائية إلى الأمام كما حدث بالفعل فى كل من "مكة"، و"باندونغ".

أما زملاء "دريهر" الجدد، فلم يكن ذلك المنحى ليروق لهم ... إذ كان مقر الأمكوموليب بنيويورك غاصا بتلك العقليات الاستخباراتية ... تلك التى على شاكلة "دريهر"، إلا أن الأمر فى ميونيخ كان جد مغاير. فالعاملون هناك كانوا حريصين تماماً على إدارة محطة إذاعية وتشغيلها ... لذا، فقد كانوا يعتبرون أنفسهم صحافيين قيض لمنظمتهم أن تحظى بمالك غير اعتيادى. أما "دريهر" فكان أشبه بما يذكرهم بكونهم ضالعين فى إحدى الجبهات الأمامية لوكالة الاستخبارات المركزية. كذا، فقد خامرتهم شكوك فى كون دوره متمثلا فى الحرص على الإبقاء على اليد الطولى للأيديولوجية بألا تتراجع وتفسح مجال الصدارة أمام حرفة الصحافة هناك، وذلك فضلا عن تشككهم بشأن تكتيكات "دريهر" المتبعة. فخلال انتفاضة هنغاريا (١٩٥٦)[٨٧]، عمد راديو أوروبا الحرة، المحطة الشقيقة لراديو الحرية، إلى تشجيع الثوار إلى أن قام السوفييت بسحق الانتفاضة. إن فشلا كهذا من وجهة نظر الكثيرين فى مكتب أمكوموليب بميونيخ قد أدى إلى تعرية مفهومى

"التحرر"، و"الهجوم الاستباقي" وفضحهما كرطانة خطابية جوفاء. على أن "دريهر" لم يكن ليستوعب الدرس. فوفقا لويليام كلمب، أحد نواب "دريهر"، "فإننا جميعا قد خلنا أن الاتحاد السوفييتي قد كان يحمل بين طياته عوامل فنائه ... بيد أنني لم أكن واثقا في أن دريهر قد كان يدرك أمراً كهذا". جاء ذلك على لسان "كلمب" في لقاء جمعني به في السابع عشر من كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٦ بنيويورك سيتي.

هذا، وقد شرع "دريهر" في التحمس للمزيد من الاستخدام المكثف الفاعل للاجئين ... حيث انقسمت تكتيكاته إلى تكتيكات "هجومية"، وأخرى "دفاعية" ... وهو ما ورد في خطاب له في السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦١ إلى "هولاند سارغنت" - رئيس الأمكومليب - استعرض "دريهر" خلاله التكتيكات المتبناة في العمل بميونيخ. أما التكتيكات الدفاعية، فقد كانت تعني الوقاية ضد الجهود السوفييتية الساعية إلى إعادة المواطنين السوفييت إلى أراضيهم - إذ كان الاتحاد السوفييتي قد دشن حملة دعائية شرسة لاستعادة اللاجئين واعدا إياهم بعفو عام ووظائف مناسبة. وكان كثيرون من أولئك اللاجئين يغمرهم الحنين توقا إلى أوطانهم، حيث ارتحل البعض بالفعل إلى أرض الوطن ... لتعلن موسكو أن عودتهم دليل على كون ما يقال بشأن جاذبية الغرب وسحره ما هو إلا ادعاء أجوف.

أما اهتمام "دريهر" الحقيقي، فكان بالتكتيكات الهجومية. فالمحاولات الباكرة في هذا المجال، كاستزراع اللاجئين السوفييت في الاتحاد السوفييتي على سبيل المثال، قد أسفرت عن عواقب كارثية وخيمة، بيد أن الضجر من وتيرة الحرب الباردة الرتيبة قد أفضى إلى التشديد على ضرورة القيام بعمليات جريئة جسور. وفي هذا السياق، أيد "وولبول ديفيس"، مدير "بوب دريهر" وعضو مكتب تنسيق السياسات بوكالة الاستخبارات المركزية تلك التدابير بشدة. هذا، وقد كان معظم اللاجئين تواقين للتعاون في هذا الإطار، ولم تكن الموارد تنقص "دريهر" على

الإطلاق ... لذا، فقد عمد إلى ضمان انسياب المدفوعات إلى جماعات اللاجئين على نحو منتظم. ولربما كان متلقو تلك المدفوعات أناسا كريهين مبغوضين، فيما كان البعض من القتلة، على الأرجح ... إلا أن المدفوعات كانت تجرى فى مواعيدها. هذا، وكان الجميع يعلمون أن الممول هو "وكالة الاستخبارات المركزية"، وأن "روبرت دريهر" هو رجل "الوكالة" فى ميونيخ.

لقد أمضى الدبلوماسيون الأمريكيون عام ١٩٥٨ فى تقييم الدوافع وراء أداء بلادهم الباهت، بل والمعيب ... وخلصوا إلى أن إحدى المحاسن التى عوضت ذلك الأداء تمثلت فى وجود قدامى من وثقت فيهم الولايات المتحدة من أمثال "سعيد شامل"، و"روسى نصار" ... إلا أن الأمريكيين كانوا بحاجة إلى ممثلين أكثر صدقية.

وهنا يأتى "دريهر" ليملأ فراغا كهذا ... وذلك وفقا لمساعده، آنذاك، - "إدوارد أوولوورث"، أستاذ كرسى الدراسات التركية/ السوفييتية بجامعة كولومبيا بنيويورك، والذى كان - حينها - باحثاً ناشئاً فى تاريخ آسيا الوسطى ... حيث قام بإجازة مدتها عام واحد ليصقل مهاراته اللغوية فى ميونيخ لحساب "أمكومليب". هذا، وقد أكد لى "أوولوورث" فى لقاء أجريته معه فى السابع من كانون الثانى/ يناير ٢٠٠٦ بنيويورك سيتى، أن "دريهر كان يسعى للإفادة من سعيد رمضان، حيث عمل روسى نصار كهمزة وصل بين الاثنين". (إلا أن "نصار" قد رفض التعقيب على ذلك الأمر حين أخبرته به فى لقائى به فى العاشر من أيار/ مايو ٢٠٠٦ بفرجينيا). واستطرد "أوولوورث" ليخبرنى بأن "نصار قد سعى إلى أن يربط بين مؤتمر العالم الإسلامى وبين ميونيخ وأحداث جنوب شرقى آسيا".

إنه ليس واضحا ما إذا كان هذا التحالف قد ظل قائما حين دعا "سعيد

رمضان" إلى بناء مسجد لمسلمى ألمانيا خلال الجمع المنعقد بكنيسة القديس بولس عام ١٩٥٨، على ما أسلفنا. ففى تلك الآونة، ذكرت استخبارات ألمانيا الغربية، على نحو صريح وفى أكثر من تقرير، أن الولايات المتحدة الأمريكية قد وفرت جواز سفر أردنيا لسعيد رمضان لتتيح له الارتحال إلى أوروبا، فيما زعمت الاستخبارات السويسرية أنه كان جاسوسا أمريكيا. اما عائلة "رمضان"، فلم تعقب على الأمر، وأما "وكالة الاستخبارات المركزية" فلم تفرج بعد عن ملف "سعيد رمضان" لديها. إلا أن المؤكد هو أنه ما أن استقر "رمضان"، حتى شرع هو و"روبرت دريهر" فى العمل معا.

إن الدليل الواضح على ذلك التعاون قد أسفر عن وجهه فى شباط/ فبراير ١٩٥٩، حين قام اثنان تربطهما علاقة وثيقة بأمكومليب بزيارة "فون منده". وكان أحدهما "أحمد نبى ماغوما" – الناشط السياسى العتيد والموظف السابق بالأوستمنستريوم، والذى سلفت الإشارة إليه. وقد التمس "ماغوما" – قبلها بسنوات قلائل – من "إيريك كونيهولم" بأمكومليب وظيفة له ... وذلك حين قام "كونيهولم" بجولة شملت كلا من ألمانيا وتركيا. أما الزائر الآخر، فكان "سعيد شامل"، الزعيم الداغستانى المبجل ذا العلاقات الوطيدة بأمكومليب. هذا، وقد قدم "ماغوما"، و"شامل" خطابا إلى "فون منده" اشتمل على طلب بتمديد نطاق "الإدارة الدينية للاجئين المسلمين فى ألمانيا الاتحادية" – التى أنشأها "نور الدين نمنقانى" من قبل، بألا تقتصر على الجنود القدامى، بل لتشمل المسلمين كافة، وبخاصة طلبة "سعيد رمضان". كذا، فقد طالب الاثنان بعقد مؤتمر أوروبى حول الإسلام يترأسه "رمضان"، حيث ذكرا أن "نمنقانى" ليس أهلا لمهمة كتلك ... إذ تبدى للطلبة الذين قاموا باستشارته فى أمور دينية أنهم يعرفون عن "الإسلام" أكثر مما يعرف إمام "أسراب الدفاع" السابق. كذا، فقد أوردا أن "سعيد رمضان" كان لديه الانطباع

ذاته عن "نور الدين نمنقاني".

أما "فون منده"، فقد ثارت ثائرته بشأن الخطة الأمريكية لدعم "سعيد رمضان" على حساب "نور الدين نمنقاني"، حيث قال: "لدى انطباع بأن تلك الانتقادات قد أثيرت عن عمد ضاربة عرض الحائط بالحقيقة الساطعة بغية تحجيم مسئوليات "نمنقاني"، والحد من تأثيره الفاعل". كما عمد "فون منده" إلى الحط من قدر رمضان قائلاً "إن رمضان لا يملك أدنى تأثير في العالم الإسلامي" ... وهو أمر مناف تماما لواقع الحال، ومقولة غمط فيها "فون منده" حق الرجل.

إلا أن "سعيد شامل" قد أخبر "فون منده" أن هواجسه وهمومه في غير محلها، إذ ليس لها أساس من صحة، وأن الخطة لتجرى - بالفعل - وفق المسار المرسوم لها، مضيفا أن "دريهر" لراغب في تمويل المؤتمر المنشود، وأن قصارى ما يبغون من "فون منده" هو جهوده لإقناع وزارة خارجية ألمانيا الغربية باستخراج "تأشيرات" للمسلمين القادمين إلى ميونيخ لحضور المؤتمر. هذا، وقد أرسل "فون منده" تعقيباته على زيارة "ماغوما"، و"شامل" له، وذلك إلى وزارة الخارجية الألمانية، حيث كتب أن "سعيد شامل" كان يُعرف - على امتداد إقليم الشرق الأوسط - بأنه جاسوس أمريكي، وأنه لزام على ألمانيا الغربية أن تتشكك في مؤتمر يكون رئيسه "سعيد رمضان"، ... "ذلك أنه من الجلي أن الهدف من وراء جهود سعيد شامل هو إرساء منبر جديد يتمكن رمضان من خلاله - ونيابة عن الأمريكيين - من أن ينشط في الشرقين الأدنى والأوسط". وبالطبع، لم تحفل الخارجية الألمانية بمخاوف "فون منده" وهواجسه ... إذ كان لأمكومليب نفوذ طاغ في ألمانيا الغربية التي عمدت خارجيتها إلى استخراج التأشيرات المطلوبة.

هذا، وكان الألمان الغربيون قد أفلت منهم زمام الأمور. إذ ورد إلى "فون منده"

تقرير من جهة ما فحواه قيام السفارة الروسية بتجنيد الطلبة العرب، والإعداد لإقامة حفل للطلبة المسلمين بكولونيا فى حانة "الفرنسيسكان" فى فرايبورغ. أما ألمانيا الشرقية، فكانت تمنح الطلبة المصريين منحا وبعثات دراسية، فضلا عن عرب آخرين. إذا، ما لم يعمد "فون منده" إلى القيام بفعل ما، فسيتمكن، حينها، السوفييت من الإبحار بحرية فى هذا البحر الخضم من "المجندين" المحتملين.

وفى تلك الأثناء، طرق السوفييت أبواب رجل من خاصة رجال "فون منده" البارزين ... وهو أستاذ جامعى يدعى "عبد الله" وفد إلى "هامبورغ" قادما من سوريا، حيث هاتف "نمنقانى" سائلا إياه ما إذا كان راغبا فى تمويل المسجد المزمع إنشاؤه فى ميونيخ ... إن جماع ما سيتطلبه الأمر هو زيارة إلى القاهرة. وهنا لجأ "نمنقانى" إلى "ولى قيوم خان" ملتمسا المعونة، وقام بنقل الرسالة إلى "فون منده" الذى استدعى "نمنقانى" من ميونيخ، ليحضر هو و"ولى قيوم" إلى "دوسلدورف" للتشاور فى الأمر. هذا، وقد فهم "فون منده" أن العرض المقدم قد مثّل ردة فعل موسكو إزاء طلب الأمريكيين تنظيم المؤتمر. فالسوفييت أرادوا استبعاد الأمريكيين عن طريق قيامهم بتمويل المسجد بأنفسهم. وهنا تم إبلاغ "نمنقانى" بألا يذهب إلى القاهرة.

ورغبة منه فى معادلة القوتين الأعظم ... الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى ... دشن "فون منده" عملياته المستترة فى إقليم الشرق الأوسط. فخلال موسم الحج لعام ١٣٧٨ هجرية (١٩٥٩ ميلادية) – قام "فون منده" بإرسال "نور الدين نمنقانى"، و"باى ميرزا هاييت" فى رحلة إلى الشرق الأوسط لتوزيع بعض الدعايات المناهضة للشيوعية وأخرى مناصرة لألمانيا الغربية. إلا أن ما أُبلِغ به قد بات يقلقه. فبفضل تدخل "سعيد رمضان"، شرع العالم الإسلامى يدرك أن "مسجد ميونيخ" هو مشروع أمريكى، لا ألمانى ... فى إشارة أخرى إلى اضطلاع "رمضان"

بمهام كبيرة نيابة عن أمكوموليب. أما "نمنقانى"، فقد أرسل تقريرا إلى "فون منده" مخبرا إياه بمواجهة مصاعب جسام مع اللجنة الأمريكية للتحرر من البلشفية. وفى لعبة كتلك الدائرة، كانت ألمانيا الغربية خارج إطار رابطة القوى العظمى. ففى أعماق طواياهم، أراد الألمان أن يضطلع المسلمون بدور ما بشأن مطلب ضبابى "دون كيخوتى" ... ألا وهو مساعدة ألمانيا فى استعادة أراضيها المستولى عليها، وذلك ذات يوم فى قابل الزمان. أما القوتان العظميان، فكان لديهما - بالمقابل - أهداف استراتيجية آنية عراض فيما يخص "الإسلام" ... حيث كانت ألمانيا الغربية ساحة للقتال فيما بينهما.

وخلال تلك الأثناء، كان "سعيد رمضان" فى أوج تأثيره. ففيما كان يكتسب تحالفات قوية فى أوروبا، فقد ظل يمثل قوة ضاربة فى العالم الإسلامى أيضا. فعلى سبيل المثال، قام رمضان بإعادة الروح إلى "منظمة المؤتمر الإسلامى" التى عمد إلى إحيائها. لقد تشكلت تلك المنظمة بغية توحيد المسلمين على امتداد أنحاء المعمورة، إلا أنه - وبحلول خمسينيات القرن العشرين - تضاءل الكيان ليضحى مجرد منتدى يسيطر عليه أمين الحسينى، وجماعة "الإخوان المسلمين". إلا أن "سعيد رمضان" قد قام بالدعوة إلى "الاجتماع العام" الثالث للمنظمة فى كانون الثانى/ يناير ١٩٦٠، حيث أحرز نجاحا مدويا. وكان من بين حضور الاجتماع، فضلاً عن أعضاء جماعة "الإخوان المسلمين" بالمنفى، رئيس الوزراء الإندونيسى الدكتور محمد بن ناصر بن إدريس داتوسيتاريو - إلى جانب ممثلين عن اثنتى عشرة دولة إسلامية. هذا، وقد حظى الاجتماع بدعم مجموعة من رموز الثقافة البارزين من أمثال "سعيد شامل" الداغستانى، حيث تناول عددا من المواضيع والقضايا، كان أبرزها الشيوعية وقضية فلسطين. أما تعاطف "سعيد رمضان" الأيديولوجى مع الموقف الأمريكى، فيمكن أيضا ملاحظته من خطاب كتبه إلى

واحدة من جبهات "وكالة الاستخبارات المركزية" بميونيخ ... تحديدا، "معهد دراسات الاتحاد السوفييتي"، وذلك فى السادس عشر من آذار/ مارس ١٩٦٠، حيث خاطب "على قنطمير"، بالنسخة العربية من مجلة "المعهد" معربا عن مدى استمتاعه بها، ومبديا استعداده لتوزيعها فى الأقطار الناطقة بالعربية.

إلا أن قاعدة "رمضان"، ومركز ثقله - كما بدا جلياً - قد أخذ ينتقل صوب القارة الأوروبية. فرغما عن كونه رمزا له اعتباره ضمن جموع المسلمين بالشرق الأوسط، إلا أنه كان مفتقرا إلى الأمان. وفى أثناء إقامته بالسودان خلال عام ١٩٥٩، قرر "رمضان" الانتقال هو وأسرته للعيش نهائيا فى جنيف بسويسرا. ففى خطاب أرسله إلى "فون منده" فى العاشر من نيسان/ أبريل ١٩٥٩، أخبره "رمضان" بأنه قد تجرع كأس الانقلابات والديكتاتوريات كاملة ... ومن ثم، فقد سئم وضاق ذرعا فاعتزم الرحيل.

هذا، وقد أضحت زيارات "رمضان" إلى ألمانيا تترى. فبعد شهر من وصول أسرته إلى جنيف ... شارك الرجل فى "المؤتمر الأوروبى" الذى موله "روبرت دريهر" ... ذلك المؤتمر الذى استهدف تمثيل جميع المسلمين فى ألمانيا وأوروبا. وبخصوص هذا المؤتمر، كتب "إبراهيم كوجا أوغلو" خطابا بتاريخ السابع والعشرين من نيسان/ أبريل ١٩٥٩ إلى "فالتر شتاين" - وزير العمل البافارى، آنذاك ... نظرا لما يربطه من علاقات وثيقة بأمكوليب. إذا، فلا عجب أن تكون فحوى الخطاب عاكسة لفكر أمكوليب. هذا، وقد ذهب "كوجا أوغلو" إلى وصف "ميونيخ المستقبل" بأنها مركز الإسلام فى العالم أجمع، إذ يجب أن يكون مسجدها مسجدا للمسلمين كافة. فوفقا له، "يجب ألا يستهدف المسجد المزمع بناؤه جماعة بعينها، أو فصيلاً دون آخر ... بل يجب أن يكون المسجد نقطة انطلاق لمسلمى العالم بأسره، ومركزا للفكر الإسلامى ... فضلا عن ضرورة أن

يكون بؤرة لالتقاء الفن الإسلامي والفن الألماني وتمازجهما معاً".

وقد كان لهذه الأهداف أصداء في الهيكل الجديد الذي أرساه "سعيد رمضان". فحين اجتمع الطلبة والجنود القدامى بكنيسة القديس بولس بميونيخ في عام ١٩٥٨، قرر الحضور تشكيل لجنة بناء مسجد ميونيخ، على أن يترأسها "نور الدين نمنقاني"، ويكون "رمضان" رئيسا شرفيا لها. هذا، وقد ظلت اللجنة كيانا غير رسمي حتى عام ١٩٦٠ حين تم تسجيلها قانونيا، وأشهرت كمنظمة رسمية لها حقوق وعليها التزامات قانونية. وكان من بين منافع تحولها كيانا رسمياً – التمتع بشخصية قانونية رسمية يكون لها حق التقاضي أمام المحاكم، وإقامة دعاوى قانونية. أما الالتزامات، فقد اقتضت موادا قانونية خاصة بحق التنظيم والاجتماع ... فضلا عن ضرورة وجود مجلس إدارة منتخب، ومحاضر تسجل بها وقائع الاجتماعات ... إلى جانب تعين وجود رئيس مجلس إدارة لها ... وكان الرئيس هو "سعيد رمضان".

ولم يكن جليا تماما كيف حدث ذلك. فاللجنة كانت من بنات أفكار "نمنقاني" ... وهو نفسه الذي مهر توقيعه على الخطاب الذي أعلن بموجبه المحكمة أن "سعيد رمضان" هو رئيس مجلس الإدارة. ولربما عكس ذلك الأمر أن "الرجلين" – بادئ العهد – قد كانا على وفاق ... وربما كان "نمنقاني" يؤمن أن لجنة بناء المسجد لم تكن إلا امتدادا للإدارة الدينية للاجئين المسلمين، والتي كان ما يزال رئيسا لها، آنذاك. إلا أن تصرفات "نمنقاني"، وبعد مضي سنوات قلائل، كانت تشي كما لو كان لا يدرك ما انطوى عليه تسجيل اللجنة رسميا – وهو الأمر الأرجح، نظرا لضعف مستوى تحصيله الدراسي، بالمقارنة بسعيد رمضان الذي كان قد فرغ، حينها، للتو من أطروحته للدكتوراه مع البروفيسور "غرهارد كيغل". وعلى أية حال، فقد اضحى "رمضان" – فجأة – ممسكاً بدفة الكيان القانوني المنوط به بناء

المسجد ... وهو دليل آخر على أن الأمريكيين قد دعموا الرجل المناسب (هذا، وقد ظل "نمنقاني" مسئولاً عن الإدارة الدينية للاجئين المسلمين، والتي لم تكن مخولة بأمر المسجد). أما الألمان ... الذين اجتذبوا "نمنقاني" واستمالوه، وجاءوا بفكرة بناء المسجد ... فقد اضحوا مستبعدين وشلت فاعليتهم.

هذا، وسرعان ما أفاد "رمضان" من وضعه الجديد. فحين برزت إلى "نمنقاني" فكرة بناء مسجد في عام ١٩٥٨ – لم يكن لدى أحد خطة لجمع مئات الآلاف من الماركات الألمانية اللازمة لتمويل تشييد بنيان كهذا. أما الآن، في منتصف الستينيات، فقد أعلن "رمضان" أنه ذاهب إلى الحجاز في رحلة لأداء فريضة الحج، وأنه سوف يجلب معه الأموال اللازمة. أما نفقات بناء المسجد، فقدرت وقتها بـ ١,٢ مليون مارك ألماني (أو المعادل لمبلغ ٢,٢ مليون دولار أمريكي ... بأسعار اليوم). كذا، فإن مهندسا تركيا يدعى "عثمان أديب غوريل" كان قد شرع في التخطيط الهندسي لبناء مسجد متكامل ذي قبة ومئذنة.

هذا، وقد واصل "سعيد رمضان" مساعيه لاجتذاب "فون منده" واستمالته إلى صفه – ويفهم ذلك، على الأرجح، أنه إشارة إلى أن الأمريكيين كانوا يوزعونه لتمتين صلاته بعميلهم الاستخباراتي القديم ... فمن دون ذلك التبرير، لا يكون جليا الدافع الذي أدى برمضان للمبادرة باجتذاب الرجل. وفي أعقاب الاجتماع الذي شهدت كنيسة القديس بولس وقائعه، أرسل "رمضان" أحد صغار معاونيه التماسا لتأييد "فون منده" ودعمه. كذا، فقد التقى "رمضان" باي ميرزا هاييت سعيا للدفع قدما لإرساء منظمة أشمل تنتظم المسلمين كافة. إلا أن ردة فعل هاييت كانت غاضبة حانقة، إذ كتب خطابا يقطر غضبا بتاريخ الثامن من آذار/ مارس ١٩٦٠ وجهه إلى "فون منده"، جاء فيه: "إن ألمانيا لبوابة لا يملك زمامها أحد، ذلك لعدم وجود حارس عليها ... فكل يفد إليها ويفعل ما يحلو له".

وبعد ذلك بشهر أو يزيد، وتحديداً فى الرابع عشر من نيسان/ أبريل، أرسل هاييت تقريرا إلى "فون منده"، أخبره فيه أن الولايات المتحدة الأمريكية تسعى مرة أخرى لتعديل نطاق الإدارة الدينية لنمنقانى، وذلك عن طريق تمديد آفاقها بحيث تتناول قضايا إسلامية عالمية، إذ كان المفترض أن يكون المسجد أداة لنقد "الإسلام السوفييتى". واستطرد هاييت فى تقريره قائلا: "إن المرء ليخلص إلى كون اللجنة الأمريكية للتحرر من البلشفية تسعى إلى استخدام تلك الإدارة الدينية لخدمة مآربها الدعائية".

هذا، وكلما أنعمت وكالات الاستخبارات النظر إلى "سعيد رمضان"، كان ذلك مقرونا بفهم أقل له ولدوافعه. فوفقا لتقرير بتاريخ الثانى من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٦٠، كتب هاييت إلى "فون منده" يخبره بأن "رمضان" كان يخطط للقاء "ضياء الدين باباخانوف" – مفتى المسلمين فى روسيا، ورئيس الإدارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وقازاخستان ... والذى تعهد بتقديم أموال لتشييد المسجد. إلا أن تخطيط "رمضان" كان بلا طائل أو جدوى غير الإفصاح عن المصاعب التى أحاطت بالرجل الذى قررت أمكومليب دعمه وموآزرته.

أما "دريهر"، فما فتئ يسعى لإدخال الألمان فى مجلس الإدارة ... ففى أيار/ مايو ١٩٦١، قام بمهاتفة "فون منده" لينصحه بمقابلة "سعيد رمضان". هذا، وقد شعر "فون منده" بالارتباك كونه قد أدرك أن أمكومليب قد اعترضت على شخص "رمضان" بوصفه رجعياً متحفظاً – وفقاً لما ورد ببعض تعقيبات "وكالة الاستخبارات المركزية" قبل سنوات خلت بشأن "فاشستية" سعيد رمضان. وقد جادل "دريهر" فى أنه لا معنى لوجود منظمات إسلامية متنافسة فى ألمانيا الغربية ... إذا، فلم لا يتم دعم الرجل المناسب؟ إن رمضان لديه صلات ممتازة وعلاقات واسعة النطاق فى الشرق الأوسط، الأمر الذى يسهم بالإيجاب فى مناهضة العالم

الحر لخطر الشيوعية.

وعلى مضض، وافق "فون منده" على لقاء "رمضان" فى "دوسلدورف"... حيث كان للثنائى أحاديث طوال فى المقر الفخم لفون منده. لقد بهت "فون منده" وظل مشدوها حين اقترح "رمضان" إرسال "وفد إسلامى" إلى الاجتماع التالى للجمعية العمومية للأمم المتحدة، بحيث يطالب الوفد بالحريات الدينية، وبالطبع يقوم أيضا بالهجوم على الاتحاد السوفييتى. وكان الاقتراح أن يترأس "سعيد رمضان" الوفد بمعاونة مساعدين هما "إبراهيم كوجا أوغلو"، و"سعيد شامل". هذا، وقد رأى "فون منده" الاقتراح سخيفا، حيث كتب يقول: "إن كوجا أوغلو وسعيد شامل لم يحظيا بانطباع إيجابى عن مجمل أعمالهما فى ميونيخ ... إذ كانت أنشطة شامل أثناء الحرب الكونية الثانية وما بعدها أحاديث لاكتها الألسنة فى المهجر. لذا، فإن الرجلين اللذين اقترحهما سعيد رمضان ليسا أهلا للاضطلاع بمهام كان يخطط ليعهد بها إليهما".

كذا، فقد عمد "فون منده" إلى توجيه خطاب فى أيار/ مايو ١٩٦١ إلى ضابط الاتصال خاصته بالاستخبارات الاتحادية الألمانية "زيغفريد أونغرمان" متسائلا: "عن أى الوكالات الأمريكية تلك التى يعمل رمضان لحسابها". فلربما لم يكن يدرى شيئا عن كون "روبرت دريهر" ضابط اتصال بوكالة الاستخبارات المركزية، بالرغم من امتلاء ملفات "فون منده" بتعقيبات أدلى بها عملاء أمكومليب وجواسيسها فى وصف مناح أخرى لكواليس المنظمة وخباياها.

كذا، فقد كان "فون منده" قلقا بشأن خطط "رمضان" فيما يتعلق بموسم الحج ... إذ آمن "فون منده" بأن القيام بجمع التبرعات لم يكن إلا منبرا لجذب الاهتمام بحيث يسهل على "رمضان" استئصال "نمنقانى" والحلول محله. أما لأمكومليب،

فستكون فرصة لمهاجمة الاتحاد السوفييتي، فيما يمكن لرمضان أن يعمد إلى محاولة كسب التأييد لصالح جماعة "الإخوان المسلمين" ولصالح حلمه المتمثل في عالم إسلامي موحد.

فعقب مغادرة "سعيد رمضان"، تحير "فون منده" المتوجس ما عساه يفعل ... لقد أخبر "دريهر" مراراً أن الاختيار من ضمن اللاجئين المسلمين المدعومين من قبل أمكوموليب قد جانبه التوفيق. بيد أنه إذا كان "دريهر" قد خال أن يكون "رمضان" لديه علاقات واسعة بما يجعله أهلا للدعم والموآزرة، فقد يكون لفون منده أن يعيد ترتيب حساباته، فلربما كان قد تعجل في استبعاد "سعيد رمضان".

وكانت الفكرة الوحيدة لدى "فون منده" لتمحيص وجهة نظر "دريهر" هي اقتحام مكتب "سعيد رمضان" وسرقة ملفاته ... لذا، فقد عمد إلى ما يلجأ إليه كل بيروقراطي ناجح: كتابة مذكرة قام فيها بتحديد المشكلة واقتراح الحل المناسب. وفي ثنايا المذكرة، كتب "فون منده": "إن رمضان الذي يتعاون على الدوام مع أمكوموليب له قاعدة محدودة من المهووسين العرب"، إلا أنه مصنف كعدو لرجل مَصر القوي، جمال عبد الناصر ... بيد أن ملفاته ستوضح مدى نفوذه في العالم الإسلامي.

هذا، وقد أمضى "فون منده" بعض الوقت يفكر في كيفية القيام بعملية السطو، بحيث يقوم باي ميرزا هاييت بتنظيم المهمة ... ثم قام "فون منده" بعرض الفكرة على "زيغفريد أونغرمان" بالاستخبارات الاتحادية الألمانية، مؤكداً أن "رمضان" يعمل لحساب الأمريكيين، وأن نفقاته قد مولها الجانب الأمريكي. وفي النهاية، تم التراجع عن فكرة السطو تلك، إلا أن "فون منده" كان محقاً في القلق الذي استشعره ... فرمضان كاد يسيطر على مشروع بناء المسجد. وكما كان الأمر

دائما، فقد كان هاييت – ذراعه اليمنى وموضع ثقته – هو من لفت انتباه "فون منده" إلى الأمر ... وكما كانت العادة، فقد كتبت الرسالة المؤرخة فى الخامس من حزيران/ يونيو ١٩٦١، من هاييت إلى "فون منده"، بأسلوب صريح مباشر ولكنها صيغت بألمانية ركيكة.

"إنه لأمر صاعق أن تظهر فى الأفق جماعة إسلامية أخرى يكون على رأسها سعيد رمضان ... إنه ليبدو أن النمط الشائع فى أيامنا هذه هو الكثير من الجماعات والقليل من الأعمال النافعة". كذا، فقد ذكر هاييت، فى رسالته، جماعة أخرى شرعت تسعى لبسط نفوذها فى أرجاء ميونيخ ... إنها "جماعة الإسلام"، تلك الجماعة الإسلامية الخيرية المريبة التى تتخذ من العاصمة الأمريكية، واشنطن، مقرا لها – حيث يترأسها ذلك الروائى الحرون صعب المراس ... أحمد كمال.